القصص الديني

الحلقة الثانية
قصص السيرة

عبد الله وآمنة

عبد الحميد جودة السحار

٣

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِين * ثُمَّ
جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِين * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطفة عَلَقَةً ،
فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ،
فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ، ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ،
فَتَبَارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِين ﴾ .

(قرآن كريم)

١

تذكَّر عبدُ المطَّلبِ أنَّه نذَرَ يومَ كان يحفِر زَمزم هو وابنُه الحارث : لئنْ وُلِدَ له عشرةُ ذكور حتَّى يراهم ، لينْحرَنَّ أحدَهم للّهِ عند الكعبة ، وهؤُلاء قد اكتملُوا عشرة ، فوجبَ عليهِ أن يُوفِّيَ بنَذْرِه ، فطلب أولادَه ، وكان أكبرُهم الحارث ، وأصغرهُم عبدُ اللّه ، وكان عبدُ اللّه أحبَّ أولادِهِ إلى قلبه ، فالتفت إليهم وقال :

ـ نذرْتُ أن أَذبحَ أحدَكم للّه إذا وهَبَ لِي عشرةَ ذكور ، وها أنتم قد اكْتملتُم عشرة ، وإني أحبُّ أن أُوَفِّيَ بنذرِي .

فقالوا له :

ـ أوفِ بنذرِك ، وافعلْ ما شئت .

فقالَ ليختارَ من بينهِمْ من يذْبَحُه :

ـ ليأخذْ كلٌّ واحدٍ منكُم قِدْحـا ، ثـم يكتـبْ فيـه اسْمَه ، ثم ائتونى به .

كـان العـربُ حينئـذٍ إذا أرادُوا أن يفْعلـوا شيئا يضرِبُـون بـالقِدَاحِ ، والقِـداحُ : عيـدانٌ مـن خشـبِ البَقْسِ نُحِتت ومُلِّسَت ، وجُعلت سواءً فى الطول ، يُكتـبُ عليهـا « افعـلْ » أو « لا تفعـلْ » أو مـا يشاءُونَ أن يقْترِعُوا عليه ، وكانوا يذهبُون إلى هُبَل ، وهو صنمٌ يعبدونـه : ثـم يطلبـونَ مـن الحـاجب ـ ويُطْلقُون عليـه « السـادِن » ـ أن يختـارَ قِدْحًـا مـن القداح ، فإذا خرجَ القِدْحُ المكتـوب فيـه « افعـلْ » كانوا يفعلونَ الشيء ، أما إذا خرجَ القِدحُ المكتوبُ فيه : « لا تفعلْ » فكانوا لا يفعلونَ ما نُهُوا عنه .

ولما كان عبد المطّلبِ يريد أن يقْترِعَ بـين أولاده ، ليختارَ منهم من يذْبَحُـه ، أمرهُـم أن يكتُبـوا أسماءَهم على القِدَاح ، فلمَّا فعلُوا قدَّموها إليه .

فذهب عبدُ المطَّلب إلى الكعبة ، والناس خلفه يذكرون نذرَه ، وما عزم على أن يفعلَه . وتقدم من سادِن هُبَل ، وقدم إليه القداح ، فلف السادن يدَه بقماش ، وجيء بثوبٍ أبيضَ ، وبُسط بين يدى السادن ، وأمسك بالقِداحِ تحت الثوب ، ومد يدَه ، وأخرجَ قِدْحًا ، فإذا به قِدْحُ عبد اللّه .

وساد سكونٌ عميق ، وامتدت أعناقُ الناس ، واتَّسَعت العيون . كان على عبد المطّلبِ أن يذبحَ عبدَ اللّه أحبَّ أبنائه إليه . لم يُحْجم عبدُ المطَّلب بل تقدَّم ، وأخذَ عبدَ اللّه بيدهِ ، وأخذ السكين ، ثم ذهب به إلى إسافٍ ونائلة ، وهما صنمان كان العربُ يذبحُون عندَهما ؛ ونامَ عبدُ اللّه ورفعَ عبدُ المطَّلب السكينَ ليذبَحه ، وإذا برجالِ قريش يُقْبلون ويقولون :

ــ ماذا تريدُ يا عبد المطَّلب ؟

ــ أذبحُه .

– واللّه لا تذبحهُ أبدا ، لئِن فعلتَ هذا لا يزالُ الرجلُ مِنا يأتي بابنهِ حتى يذبَحَه ، فما بقاءُ الناسِ على هذا !

وقال أخوالُ عبد اللّه :

– إن كانَ فِداؤُه بأموالِنا فديْناه .

وقال الناس :

– لا تذبَحْه ، واذهبْ به إلى عرّافة (منجمة) ، وسلها ، فإن أمرَتْك بذبحِه ذبحته ، وإنْ أمرتْك بأمر لك وله فيه مَخْرجٌ قبِلتَه .

وخرجُوا إلى العرّافة ، حتى إذا بلغُوها ، قصَّ عليها عبدُ المطّلب خبرَه وخبرَ ابنهِ ، وما أراد به ، ونَذْرَه فيه ، فقالتْ :

– كَمِ الديَّةُ فيكم ؟

والدِيَّة هى عددُ الجمالِ التى كان يدفعُها أهلُ القاتلِ إلى أهلِ القتيلِ إذا تصالحوا ، فقالوا :

– عَشْرٌ من الإبل .

فقالت العَرَّافة :

ــ ارجِعوا إلى بلادكم ، ثم قَرِّبوا صاحبَكم ، وقرِّبو عشرةً من الإبل ، ثم اضرِبُو عليها وعليه بالقِداح . فإن خرجتْ على صاحبِكم ، فزيدوا في الإبل حتى يرضَى ربُّكم ، وإن خرجت على الإبل فانحرُوها عنه ، فقد رضِيَ ربُّكم ، ونجَا صاحبُكم .

٢

عاد عبدُ المطَّلب وأبناؤُه ومن خرج معه إلى مكة ، وذهبُوا إلى سادنِ قريش ، ليقْتَرِعُوا بين عبدِ اللّه والإبل ، ووقف عبدُ المطَّلب عند هُبَل يدعُو اللّهَ أن يُنقِذَ ابنَه ، وتقدَّم عبد اللّه وعشرٌ من الإبل ، وضربَ السادنُ بالقِداح ، فخرج القِدْحُ على عبدِ اللّه ، فاستمر عبدُ المطلبِ فى دُعائه ، وزادُوا عشرا من الإبل ، فبلغت الإبلُ عشرين ، ثم ضربُوا بالقداح ، فخرجَ القِدْحُ على عبدِ اللّه ، فزادوا عشرا من الإبل ، فبلغت الإبلُ ثلاثين ، واستمر عبدُ المطَّلب يدعو اللّه ، ثم ضربوا فخرج القِدْحُ على عبدِ اللّه ، ثم لم يزالُوا يضربون بالقداح ، ويخرجُ القِدحُ على عبدِ اللّه ، فكلما خرج عليه زادوا من الإبل عشرا ، حتى ضربُوا عشرَ مرات ، وبلغت

الإبلُ مائة ، وعبد المطلب قائم يدعُو ، ثم ضربوا فخرج القِدْحُ على الإبل ، ففرحَ الناس وصاحوا :

ـ قد انتهى رضَا ربِّك يا عبدَ المطَّلب .

فقال عبدُ المطَّلب :

ـ لا واللّهِ حتى أضربَ عليها ثلاثَ مرات .

فضرَبوا بالقداح على الإبل وعلى عبدِ اللّه ، وقام عبدُ المطلب يدعو ، فخرج القِدحُ على الإبل ، ثم عادوا الثانية وعبدُ المطلب قائمٌ يدعو ، فخرج القدحُ على الإبل ، ثم عادُوا الثالثة فضربُو بالقداح ، فخرج القِدحُ على الإبل ، فاطمأنَّ عبدُ المطَّلب إلى أن اللّه قد رضِيَ عن فِداءِ عبدِ اللّه بمائةٍ من الإبل .

ونُحِرَت الإبل ، وترِكَتْ للناسِ والطيورِ والوحوش يأكلونَ منها ، لا يمنعُهم عنها أحد .

٣

كانَ عبدُ اللّه جميلا ، حتى إنَّ نساءَ قريش كُنَّ يتمنيْن الزواج بـه ، وكـان فى وجهـه نُورٌ يتلألأ ، وأرادت امرأةٌ أن تتزوجَـه ، فقـد حـزَرت أن هـذا النور شأنا ، فعرضت عليه أن يتزوَّجَها ، وأن تُعطيَـه مائةً من الإبل ، ولكنه أبَى ؛ كان ذاهبـا مـع أبيـه إلى وهْب بنِ عبد منافِ بن زُهْرةَ ليزوِّجَه من ابنته آمنة .

دخلَ عبدُ المطَّلب وابنهُ عبد اللّه علـى وهْـب ، وقـال عبـد المطلـب : إنـه جـاءَ يطلـبُ آمنـةَ لابنِـه .

فوافق وَهْبٌ على تزويج آمنـةَ مـن عبـدِ اللّه ، فقـد كانَ عبد اللّه وسيما ، وكَان فى مصاهرةِ بنى هاشم شرفٌ عظيم .

٤

ومكثَ عبدُ اللّه عنـدَ آمنـةَ ثلاثَـةَ أيّـامٍ ، وكـانت هذه عادةَ العربِ إذا تزوَّجُوا فى بيتِ أهلِ الزَّوجة .

وفى اليومِ الثانى خرجَ عبدُ اللّهِ من عند آمنة ، ومـرَّ على المـرأةِ التى عَرَضتْ عليـه أن تتزوجَـه ، وأن تُعْطيَه مائةً من الإبل ، فلم تحادثْـه ، ولم تعِرض عليـه الزواج ، فعجب عبدُ اللّه من ذلك ، وقال لها :

ــ لماذا لا تعْرِضينَ عليَّ الزواج ؟

فنظرتْ إليه طويلا ، ثم قالت :

ــ أيَّ شىء صنعتَ بعدى ؟

فقال عبد اللّه :

ــ تزوجْتُ آمنةَ بنتَ وهب .

فقالت المرأةُ فى حُزن :

– رأيتُ نورَ النبوةِ فى وجْهِك ، فأردتُ أن يكون ذلك فىَّ ، وأبى اللّه إلا أن يجعلَه حيث جعلَه .

لم يكنْ مُقَدَّرا أن تأتىَ هذه المرأةُ برسولِ اللّه ، بل كان مُقَدَّرا أن تَحملَ خيرَ أهلِ الأرض ، آمنةُ بنت وهب .

٥

تأهَّبَ عبد اللّه للخروجِ إلى الشّام ، فى قافلةٍ من قوافلِ قريش تحملُ تجارات ، فدخل على زوجتِه آمنةَ يودِّعُها قبل الرحيل ، كان يعِزُّ عليه أن يفارقَها ، ولم يمكُثْ معها أكثرَ من أشهر أحبَّها فيها وأحبَّته ، ولكن كان عليه أن يخرجَ للتجارة ، كما يخرجُ أقرانُه من الشَّباب . إنه ابنُ سيدِ قريش ، وليس معنَى ذلك أن يمكثَ فى مكةَ دونَ أن يعمل ، فالناس فى ذلك الزمان لا يحترمُون إلا العاملين ، ويكرهُون الفارغين الذين يمكثون فى مكة للّهو واللّعب .

اهتمت قريشٌ بأمرِ القافلة ، فإنَّها تخرجُ بتجارتهم ؛ العبيدُ يحملُون البضائع ، ويضعُونَها على ظهورِ الجمال ، والحميرُ مُحمَلةٌ بالجلودِ والشعير ،

والرجالُ يذهبون ويجيئون ، والنساءُ واقفاتٌ يُودِّعْنَ المسافِرين . وخرجَ عبدُ اللّه وسارتْ القافلةُ ناحيةَ الشام ، وآمنةُ تودِّع زوجَها ، وفى صدرِها اضطراب ، وفي عينيها دُمُوع .

وبلغت القافلةُ غَزَّة ، ونزلتْ بسوقِها ، وبدأت المقايضة . كان العرب يُعطُونَ التّجارَ الرّومانَ جلودَ الصحراء ، وشعيرَ الطائف ، وفضةَ بنى سُلَيم ، ويأخذونَ منهم العُطورَ والحُلىَّ والتوابل .

وانتهت الرحلة ، وفى أثناء العودةِ مرض عبدُ اللّه ، ودخلت القافلةُ المدينة ، فقال عبدُ اللّه :

ـ أنا أتخلّفُ عند أخوالى بنى عدىِّ بن النّجَّار .

كان أخوالُه فى المدينة ، فمكثَ عندَهم ، واستأنفتِ القافلةُ سيرَها ، حتى إذا دخلتْ مكة ، سأل عبدُ المطّلب عن ابنِه فى لَهْفة :

ـ أينَ عبد اللّه ؟

فقالوا له :

ـ مريضٌ عند أخوالِه بالمدينة .

وبلغ آمنةَ مرضُ زوجِها ، فقلِقت . كانت تُحبُّه ، وكانت تنتظرُ عودتَه ، ولكنهم عادُوا جميعا ، وتخلَّف عبدُ اللّه !

وأرسل عبدُ المطلبِ ابنَه الحارثَ إلى المدينة ، ليعودَ بأخيه ، فلما وصلَ إليها وجدَ عبدَ اللّهِ قد مات .

وبلغ آمنةَ موتُ زوجِها ، فحزِنت عليه ، وزاد فى حزْنِها ، أنَّه كُتب على ابنِها الذى تحمله فى بطنِها ، أن يَشِبَّ يتيما .

ولكن اللّه سبحانه وتعالى كان يَحوطُ ذلك اليتيمَ برحمتِه ، ويكلؤُه بعينِ رعايته ، ويَهْديه إلى أقومِ السُّبل ، ويُعِدُّه لأمر جليلِ الخَطَر .

« ألم يجدكَ يتيما فآوى ؟ ووجدك ضالاً فهدَى ؟ ووجدَك عائلاً فأغنَى ؟ » .